الفصل العاشر

إيهاب قاسم

في روايـة «ملعون»، يقـدم إيهاب قاسـم رؤية متفردة غير مسـبوقة، من خـلال كرة القـدم، عن طبيعة المجتمع المصري قبل ثـورة 23 يوليو 1952. يمثل الأجانب، الوافـدون العابرون والمتمصرون المقيمـون، جزءًا أصيلاً من نسيج الحياة اليومية، حيث التسـامح والتعايش السلمي والاندماج بلا توتر أو صدام. تتجسـد هذه السـمة بأفضل صورهـا في نادي «المختلـط»، الزمالك فيما بعد. الاسم القديم ليس تهمة تطعن في الوطنية وتستوجب الإدانة كما يروّج بعض السطحيين، ذلك أن المجتمع في جوهره «مختلط» بلا اضطراب يتكئ على معطيات دينية أو عرقية.

مسيو زكي، ابن البلد المصري القح ذو الأصول اليونانية، أحد أبناء الجيل الثاني لعائلة مسيو ستاماتاكيس: «الذي هاجر من اليونان طلبًا للرزق في ذلك البلد الذي ينعم بقدر كبير من الخير والذي يتمتع فيه القادمون بسلام لا يجده الغرباء عادة في دول أخرى».

يتزوج الجد المهاجر ابنة الخواجة جارو، أرمني الأصل، ويسكن بيتًا تختلط فيه الأجناس والأديان والثقافات في توافق يخلو من النشـاز والصراع، ويتعايش المسـلمون والمسـيحيون، المصريـون الأصلاء منهم والوافدون المتمصرون، في محبة تليق بعائلة واحدة منسـجمة. يعبر إيقـاع حياتهـم عن جوهر فكرة «المختلط»، وهو الاسـم الذي يحملـه الفريق الكروي ذائع الصيت، الذي يعود تاريخ تأسيسـه إلى عام 1911، ويمثل قلعة من قلاع الرياضة المصرية عبر أكثر من مئة عام.

جـارو، والد زكي وسـليل الأسرتـين اليونانيـة والأرمنية، يلعب حارسًـا للمرمـى في نادي

المختلط، وينخرط في عضوية فريق مصر الوطني لفترة طويلة من الزمن. لا يملك الابن زكي من الموهبة والمهارة ما يؤهله لاستكمال مسيرة أبيه في الملاعب، لكنه يدمن كرة القدم ويعشق النادي المختلط: «فهو لا يترك مباراة ولا تمرينًا إلا ويحضر ويشاهد، يحفظ أسماء اللاعبين ومراكزهم وطريقة لعبهم، متى سيعتزلون وكيف أُصيبوا ومن هو موهوب من الأشبال ومن يجب التخلص منه، إذا رآه الموظفون سعيدًا فلابد أن المختلط قد فاز بمباراة الأمس، ويكون يومًا أسود على الجميع لو هُزم، فلن يسلم أحد من الشخط والنطر وستمتلئ سماء المكتب برائحة التمباك الذي سيشتعل في بايب مسيو زكي بلا توقف».

بأسلوب متقن يعانق العفوية، ويخلو من الافتعال والتصنع، يقدم إيهاب قاسم مقابلة دالة بين كرة القدم والآليات التي تحكم المجتمع المصري في سنوات التسامح وسيادة القيم العصرية، حيث يندمج الأجانب ويتمصرون ويذوبون في نسيج وطني يخلو قاموسه من الهوس والتعصب الهستيري ذي النعرات الدينية والعنصرية. شخصية مسيو زكي تجسيد لملامح مرحلة منقرضة، فهو يوناني الأصل، وزوجه ذات جذور أرمنية، أما الانتماء فمصري خالص. «ابن بلد» في لغته وسلوكه، وفي مدرجات ملعب الكرة لا يمكن تمييزه وهو يشجع ويهتف بمفردات شعبية يشاركه في ترديدها من ينتمون إلى طبقات وأعراق مختلفة: «زعيق وصراخ وهتافات، ومسيو زكي لا يكف عن الصياح وإنزال اللعنات بالجميع. آلاف موجودون في المدرجات يهتفون بشكل جماعي لهذا الفريق أو ذاك، والكل ضد الحكم..»!.

يبدي الكروي الخبير زكي إعجابًا غير محدود باللاعب السكندري الجديد الذي ينضم إلى صفوف المختلط، ويسهب في الحديث الحماسي عن موهبة فتحي غانم وقدراته الكروية الخارقة: «يكاد يطير فرحًا وهو يخبرهم عن هذا اللاعب الجديد الإسكندراني الفلتة الملقب بالبرنس والمنتقل من النادي الأولمبي حديثا..

مش معقول، ساحر تمامًا، وكأن الكرة مربوطة في جزمته، ابن اللذينة بيرقص الملعب كله، مش معقول بيشوط من نص الملعب، مرعب، مرعب، لن يقف أحد أمامنا للعشر سنوات القادمة».

الفضل في اكتشاف موهبة فتحي يعود إلى مستر جيمس، مدرس اللغة الإنجليزية الوقور في

مدرسة سعيد الأول. يراه يلعب في شوارع الحضرة، طفلاً متواضع الحال ضئيل الحجم، فيصيح «امسكوا الولد دى»، و يصطحبه إلى النادي الأولمبي، ملتقى الطبقة الوسطى المصرية. من هناك تبدأ مسيرة فتحي مع الكرة والحلم: «تلك المسافة التي كان يقطعها سيرًا على الأقدام من منزله المتواضع في الحضرة إلى نادي الطبقة الوسطى المصرية، كانت بمثابة الخروج من الواقع للدخول في الحلم. حلم تعلم منه الكثير. ليس في تحويل مهاراته في كرة القدم من العشوائية إلى الالتزام فحسب ولكن في تحويل حياته بالكامل إلى طموح مستمر للوصول إلى مكان في تلك الطبقة».

تنقلب حياة فتحي غانم رأسًا على عقب، وبعد الاحتكاك بالعالم الجديد الذي يفتح له الأبواب لاقتحام مناطق مهجورة، يقدم شهادة مهمة عميقة عن المكانة التي تحتلها كرة القدم، ليس على الصعيد الرياضي فحسب، بل أيضًا من حيث أبعادها الاقتصادية والاجتماعية، والصلة التي تربطها بالفن والفنانين: «ساعدته أيضًا أضواء الكرة وسحرها الطاغي الذي يزداد تأثيرًا يومًا بعد يوم، فأدرك أن الكرة تفتح بيوت الكثيرين من أول عامل غرف الملابس، ومن يحمل الكرة، إلى المدربين ومن يقطعون التذاكر، وأدرك أيضًا تلك العلاقة الحميمة ما بين لاعبي الكرة وأهل الفن، التي قد يكون سببها الأصل البسيط الذي يبدأون منه، والاعتماد على الموهبة، وعلى قبول الجماهير الذي يمثل كيمياء غريبة أو نفحة إلهية تأخذهم من الموهبة أيضًا في غمضة عين، يبدو أن ذلك الحبل القصير المشدود ما بين حياتهم البسيطة فالوهج الساطع ثم الانزواء البارد يجمعهم ليتدثروا بعضهم ببعض في تلك الحياة الغادرة».

كرة القدم، في جانب مهم من جوانبها، نشاط اقتصادي يمثل مصدر الرزق لقطاعات واسعة ممن يعملون في ساحتها، عمالاً ومدربين و إداريين، والتحليل الذي يقدمه فتحي عن العلاقة بين الكرة والفن جدير بالاهتمام والتأمل. في الفن والكرة معًا، يستطيع الفقير أن يصعد و يرتقي طبقيًّا مسلحًا بالموهبة، وعندئذ يحظى بالإعجاب و يستمتع بمسرات الشهرة والنجومية، ولا يملك في نهاية المطاف إلا أن يرضخ لطوفان التغيير الذي لا يرحم أحدًا.

في هذا السياق، يمكن القول إن كرة القدم، مثل الفن، نشاط إنساني ضروري ممتع، ينشر البهجة و يسهم في إسعاد من يتابعون الصراع الآمن الذي ينفس عن المشاعر المكبوتة، والأحاسيس

الكامنة في الأعماق، ما يحقق نوعًا من التوازن والتآلف والاندماج بين قطاعات متباينة من البشر، يختلفون في الكثير ويجمعهم حب وتشجيع الرياضة الشعبية واسعة الانتشار.

بانتقال فتحي غانم إلى المختلط، النادي الأكثر جماهيرية وشعبية مقارنة بالأولمبي، تبدأ مرحلة جديدة في مسيرته الكروية والعملية. في مباراة تجمع بين المختلط والسكة الحديد، يدعو زكي موظفي مكتبه جميعًا لمشاهدتها. تهتف الجماهير في المدرجات مطالبة بمشاركة اللاعب الجديد الموهوب، ومع نزوله تعلو الهتافات باسمه، ويتجلى تأثيره الإيجابي في الأداء: «وبدأت أهداف المختلط تتوالى، يومها أحرز فتحي هدفين من الأربعة التي أحرزها المختلط وخرج من الملعب محمولاً على الأعناق».

الفنانة الشهيرة سناء عبده، التي تشارك محمد عبدالوهاب بطولة آخر أفلامه، تشاهد المباراة من المقصورة وتهتف في حماس للمختلط ولاعبه الجديد، وليلى الطرابيلي تشاهد اللقاء أيضًا في محاولة للتواصل مع زملاء المكتب، ولم تكن تدري أن المباراة الأولى في حياتها هي المدخل لمعرفة فتحي غانم والوقوع في حبه، وصولاً إلى الزواج.

اللاعب الجديد يصادق مسيو زكي، وبفضل جاذبيته يتعلق الموظفون بكرة القدم ويواظبون على مشاهدة المباريات في الملعب: «وأصبح الذهاب إلى المباريات ثم الخروج للاحتفال بالفوز طقسًا يجمع موظفي الشركة مع فتحي، وقد انضمت إليهم سناء وبعض اللاعبين الآخرين في البداية، ثم أخذت دائرة الخروج تتقلص حتى اقتصرت على فتحي وليلى».

تنبئ موهبة فتحي عن مستقبل مشرق ينتظره في المستطيل الأخضر، وفي المباراة التجريبية الأخيرة للمنتخب المصري، أمام فريق الجيش الإنجليزي، قبل السفر للمشاركة في دورة الألعاب الأولمبية، يبالغ اللاعب الموهوب في استعراض مهاراته في المراوغة التي تكتسب طابعًا استفزازيًّا، ويتحول ظهير الفريق الإنجليزي إلى أضحوكة من فرط ما يتعرض له: «قرر فتحي أن يترك المباراة ويتفرغ للسخرية من هذا الشاويش الأحمر المنفوخ الوجه، فكان يتعمد ترقيصه عمال على بطال وتمرير الكرة كوبري من بين رجليه بطريقة تثير ضحك وسخرية كل من في المدرجات، مما زاد وجه الشاويش احمرارًا على احمرار وبدأ يشتم بألفاظ نابية وفتحي وزملاؤه لا يتوقفون وقد أعجبهم المنظر، يتعمدون تمرير الكرة إليه حتى يذهب

بها إلى الشاويش ويسخر منه أكثر فأكثر، والمدرجات تزيط وتهيص وتضحك وتسخر أكثر فأكثر».

الإسراف في إهانة اللاعب الإنجليزي يقود إلى كارثة، تضع نهاية مبكرة لعلاقة فتحي مع الكرة، وتحول دون الصعود إلى مزيد من درجات التقدم. في رد فعل عنيف، يبدو مبررًا على نحو ما، يتعمد اللاعب الإنجليزي المهان أن يصيب فتحي الذي يتلاعب به. الإصابة تحول دون السفر والمشاركة الدولية ذات الشأن، ومراهنة فتحي على التعافي والعودة إلى اللعب مجددًا لا تتحقق. يؤثر الغياب الطويل في مهارته ومرونته، ويعجز عن التحكم في الكرة وإخضاعها لإرادته: «فتمريراته مقطوعة وتسديداته في المدرجات والكرة عصية وعاصية، وكان رد فعل الجمهور قاتلاً، فلقد ارتفعت صيحات الاستهجان وصفير عدم الرضا، وهتافات طلب تغييره بشاب آخر صغير السن، والشاب جالس على الدكة منتظرًا. وتم التغيير.

لم يصدق فتحي ما يحدث، ومن أين أتى هذا الشاب؟ هل سيجلس حقًّا على الدكة؟ ويتلقى نظرات الشماتة والاستخفاف من زملائه؟ هل سيتوقف الهتاف باسمه؟ وهل ستتوقف حياته؟».

قبل سنوات من مشهد النهاية الأليم، تعلو هتافات الجماهير نفسها حتى يشارك فتحي ويخرج لاعب مجهول الاسم، يتوارى بالضرورة مع سطوع النجم الجديد. يتكرر المشهد القديم في إطار مضاد، والشاب الصغير الجالس على الدكة يتهيأ للإطاحة بالنجم الذي يتراجع مستواه ويتبخر وجوده. إنه القانون الصارم القاسي الذي يحكم كرة القدم والحياة معًا!.

على صعيد الحياة الشخصية، يتسم فتحي غانم بالمرح وخفة الدم والأناقة، لكن رغبته في الزواج من ليلى الطرابيلي تصطدم بالرفض من أبيها، وللرجل منطقه في الرفض: «علم ابنته ليلى أفضل تعليم وسافرت وشاهدت الدنيا، ولكن ها هي تختار شخصًا لا يناسبها على الإطلاق. شخص لم يحصل حتى على البكالوريا. كم لعن المشاعر والحب والكلام الفارغ وكم نبهها أنها ستفيق على كابوس يومًا ما، ولكنه قوبل بإصرار عنيد وعنيف دعاه لمقاطعة ابنته وهو يعتصر ألمًا، فلم يكن يتخيل يومًا بعد فقدانه زوجته أنه سيفقد ابنته أيضًا وهي نور حياته الذي يعيش له وبه».

تتمسك ليلى، ذات الثقافة الرفيعة والتعليم الراقي والعمل الناجح، بالزواج من لاعب الكرة الذي لا يرقى إلى مستوى طبقتها وتعليمها، ولا تدوم القطيعة طويلاً. بعد إنجاب الابن الأول محمود، يعود التواصل، وينجح فتحي في الاستحواذ على ثقة المستشار ومحبته، لكن الزيجة لا تستمر. علاقات فتحي النسائية المتعددة مسئولة عن الطلاق، أما اللاعب القديم محدود التعليم فيحترف التدريب.

□□□

هل تتحمل كرة القدم مسئولية الهزيمة في يونيه 1967؟. بعد أن تنتهي طقوس العزاء في الضابط الشهيد محمود فتحي غانم، يقول الأب لابنه علاء وحميه المستشار توفيق الطرابيلي: «سوف أغادر غدًا إلى الكويت، كما تعلمان رموا الهزيمة على الكورة والست أم كلثوم.. فأوقفوا الدوري وأخرسوا الأغاني.. مسخرة.. لم يعد لي عمل هنا، حصلت على عقد عمل لتدريب أحد الأندية هناك، قد أعود مرة في العام، وقد لا أعود..».

ليس مثل كلمة «مسخرة» في التقييم الدقيق للقرار الغرائبي الذي يتخذه النظام الناصري بإيقاف النشاط الكروي بعد الهزيمة، واتهام اللعبة الشعبية الترفيهية بالمسئولية عن كارثة الهزيمة التي تقع بالضرورة على عاتق السياسيين والعسكريين الفاشلين في التعامل الصحيح مع الأزمة، ويقودون مصر إلى السقوط في هاوية غير مسبوقة عبر تاريخها الطويل. الموقف الذي تتخذه السلطة بمثابة الامتداد للمنهج التبريري القاصر الذي لا يرى الحقيقة ولا يريد أن يراها، ويبحث عن «شماعات» وهمية ومبررات متهافتة هشة لتبرير ما لا يمكن تبريره.

عندما يتساءل المستشار العجوز: «وهل لديهم فرق كرة بالكويت؟»، يرد فتحي: «لديهم كل شيء.. ونحن فقدنا كل شيء»!.

الأمر هنا لا يتعلق بكرة القدم، ويتجاوز الكويت وإمكاناتها السياسية والاقتصادية والرياضية. البطولة في العبارة القصيرة المكثفة والموجعة للفقد الذي تعانيه مصر في شتى المجالات بعد الهزيمة، ولأن فتحي غانم ليس ناصريًّا ممن يقعون أسرى لشعارات المرحلة، فإنه يقدم تصورًا عمليًّا لا متسع فيه للعواطف والتفاؤل غير المبرر.

قبل سنوات من كلماته هذه، كان يعي الخلل الفادح الذي لا يغيب عن عينيه في طوفان الكلمات الوردية الزائفة. عند الاعتداء على حميه المستشار في مجلس الدولة، بمعرفة وتوجيه ضباط يوليو، جراء دفاعه عن القليل الذي يتبقى من الشكل الدستوري وقواعد الديمقراطية، لا يخفي فتحي إشفاقه على الرجل الذي يتحدث عن أوهام لا موضع لها: «من يحتاج إلى دستور ولديه فتوة يقترب من النبوة.. وتحت الفتوة مليون صبي وهتيف وعالمة.. قطيع مستعد يدوسك أنت والدستور والبلد كله لو بس شموا أن الزعيم ماعندوش مانع.. متى ستتعلم قيمة الدكتاتورية الثورية.. والاشتراكية المهلبية..».

بعد سنوات من تفكيره الساخر هذا، تحل الهزيمة النكراء، ولا يجد النظام المهزوم إلا الكرة لتتحمل المسئولية كأنها العدو، ويصدر القرار بإيقاف الدوري، فهل من المستغرب أن يقول فتحي غانم إننا فقدنا كل شيء؟!.

❐❐❐

obeikandl.com